الرسالة ٢٦٢

نظرية جون سيرل في القصدية
دراسة في فلسفة العقل

د. صلاح إسماعيل
قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة
جمهورية مصر العربية

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية السابعة والعشرون - ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

المحتوى

الملخـص

جون سيرل من أهم الفلاسفة الاحياء وأعظمهم أثراً في الثلاثين سنة الأخيرة. والمفهوم المحوري الذي يقع في صميم فلسفته هو القصدية. والقصدية هي قدرة العقل على أن يوجه ذاته نحو الأشياء أو يمثلها. كيف يعمل العقل؟ كيف يستطيع العقل البشري أن يمثل العالم الخارجي؟ إن التمثيل هو الوظيفة الأساسية لعقولنا. عندما نعتقد، ونفكر، ونخطط، ونأمل، ونرغب، ونتصور، فإننا نمثل العالم، وهذا هو ما يجعل حالاتنا العقلية حالات قصدية. ولكن، هل كل الحالات العقلية تظهر القصدية؟ وهل الحالات العقلية وحدها هي التي تظهر القصدية؟ وما بنية الحالات القصدية؟ وما قصدية الإدراك الحسي والفعل؟ وما العلاقة بين القصدية والوعي؟ وما العلاقة بين قصدية العقل وقصدية اللغة؟ . في هذه الدراسة، أحاول الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، وسوف أعيد بناء نظرية سيرل في القصدية وأناقش مضامينها وأقومها على ضوء تاريخ القصدية، وبخاصة دعوى برنتانو، والتطورات الحالية في فلسفة العقل .

تصدير

"فلسفة العقل هي الآن الفلسفة الأولى. والمشكلات المتعلقة باللغة، والأخلاق، والمجتمع، وحرية الإرادة، والعقلانية، وعدد كبير من الموضوعات الأخرى تتم معالجتها كأحسن ما تكون المعالجة عن طريق فهم الظواهر العقلية. والرأي – عندي على الأقل – أن معالجة تلك المشكلات تأتي عن طريق تحليل العقل الذي يرفض الثنائية dualism والمادية materialism على حد سواء".

John R. Searle, Mind, Language and Society: *Philosophy in the Real World,* New York: Basic Books, 1999, pp. ix-x.

"هناك مشكلة واحدة أساسية شغلتني منذ أن بدأت العمل في الفلسفة عند منتصف القرن العشرين تقريباً، وهي: كيف يمكن أن نملك تقريراً موحداً ومقنعاً من الناحية النظرية عن أنفسنا وعلاقاتنا بالناس الآخرين وبالعالم الطبيعي؟ كيف نستطيع أن نقبل تصورنا القائم على الحس المشترك عن أنفسنا بوصفنا فاعلين أصحاب وعي، وحرية، وعقول، وننجز فعلاً كلامياً، وتكشف أفعالنا عن عقلانية، في عالم نعتقد أنه مؤلف كلية من ذرات فيزيائية في مجال من القوة، وهي ذرات لا حياة فيها، ولا وعي، ولاعقل لها، ولا معنى، وصامتة ؟ وبعبارة موجزة، كيف نجعل تصورنا عن أنفسنا متسقاً ومتماسكاً تماماً مع تقرير عن العالم نحصل عليه من العلوم الطبيعية، وبخاصة الفيزياء، والكيمياء والأحياء ؟ والأسئلة التي شغلتني إلى أبعد الحدود – ما الفعل الكلامي؟ ما الوعي؟ ما القصدية؟ ما المجتمع؟ ما العقلانية؟ – انصبت كلها بطريقة أو بأخرى على هذه المشكلة. وأظن أن هذه المشكلة، أو فئة المشكلات، هي المشكلة المهمة في الفلسفة".

John R. Searle, *Consciousness and Language*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000, p.1.

مقدمة

١- ما فلسفة العقل؟

هل تساءلت يوماً عن عقلك: ما هو؟ وكيف يعمل؟ ومن أين يأتي؟ من الناس من يستعمل عقله استعمالاً حسناً ولا تشغله هذه الأسئلة ولا يلقي لها بالاً، ومنهم من تقلقه هذه الأسئلة ويرى أنها خليقة بالنظر، ويكاد لا يستريح له جنب حتى يلتمس لها جواباً. ولكل سؤال جواب، كما قال جميل لصاحبته بثينة.

والعقل هذه الأيام واحد من المجالات المثيرة والمهمة والشائقة التي يتناولها الباحثون بالدرس والفحص والنقد في الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الأعصاب، والذكاء الاصطناعي، والعلم الإدراكي. والحق أن التفلسف حول العقل قديم قدم الفلسفة، ولكن فلسفة العقل باعتبارها فرعاً فلسفياً واضح الموضوعات والمشكلات والمناهج والنظريات لم تعرف إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. وأستطيع أن أحدد بقدر كبير من اليقين والاطمئنان بداية فلسفة العقل المعاصرة بظهور كتاب جلبرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠ - ١٩٧٦) "مفهوم العقل" عام ١٩٤٩، وكتاب لودفيج فتجنشتين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩- ١٩٥١) "بحوث فلسفية" عام ١٩٥٣.

ومع نهاية القرن العشرين أصبحت فلسفة العقل أكثر فروع الفلسفة حيوية ونشاطاً، وشغلت معظم الفلاسفة الأحياء مثلما شغلتهم فلسفة اللغة ولا تزال. ومع بداية القرن الحادي والعشرين قفزت فلسفة العقل إلى مكان الصدارة، وكيف لا؟ وهي أحدث فروع الفلسفة، وأكثرها إثارة للجدل، وأعظمها استفادة من نتائج العلم، وأبعدها أثراً في فروع الفلسفة الأخرى؛ ليس هذا وحسب، بل ينظر إليها كثير من الفلاسفة الآن - يحذون في ذلك حذو سيرل- على أنها الفلسفة الأولى first philosophy. وفلسفة العقل هي دراسة المشكلات الفلسفية المتعلقة بالعقل

والحالات العقلية. إذا أمعنا النظر في جغرافيا العقل، وجدنا أنها متنوعة المشاهد، كثيرة الأجواء، متباينة الأجزاء. ولكي لا تتداخل هذه الأجزاء بعضها في بعض، يحسن بنا أن نحدد بداية مشكلات فلسفة العقل ونصنفها في مجموعات هي:

١- طبيعة العقل.
٢- التمثيل العقلي.
٣- العقل والجسم.
٤- العقل والذكاء الاصطناعي.
٥- الحالات العقلية.
٦- معرفتنا بالعقل.

تثير طبيعة العقل جملة تساؤلات أبرزها: ما هذا الشيء الذي نسميه عقلاً؟ أهو شيء فيزيائي مثل المخ، أم أنه شيء غير فيزيائي؟ وهل هو شيء على الإطلاق؟ وهل من الأفضل فهمه على أنه "عملية" أو مجموعة من "الوظائف" بدلاً من النظر إليه على أنه شيء؟

ويطرح التمثيل العقلي سؤالاً جوهرياً: كيف يمثل العقل الأشياء؟ وتتفرع الإجابة عنه إلى قضيتين؛ هما: الوعي والقصدية. وفي الوعي نتساءل: ما الوعي؟ وكيف يرتبط الوعي بالعالم الفيزيائي؟ وما أنواع الأشياء التي تكون واعية؟ كيف نستطيع أن نعرف الشيء إذا ما كان واعياً؟ وهل الوعي ظاهرة واحدة أم ظواهر كثيرة؟ وما وظيفة الوعي؟ وما نظريات الوعي؟ وفي القصدية نتساءل: ما القصدية؟ وما الحالات القصدية؟ وهل كل الحالات العقلية تظهر القصدية؟ وهل كل الحالات العقلية وحدها هي التي تظهر القصدية؟ وما علاقة القصدية بالوعي؟ والسؤال الرئيس في مشكلة العقل والجسم هو: كيف يرتبط العقل بالجسم؟ وتتفرع عنه أسئلة أخرى من قبيل: ما العلاقة بين الخصائص العقلية والخصائص الفيزيائية، وما علاقة المخ بالعقل ؟

أما موضوع العقل والذكاء الاصطناعي فيطرح علينا أسئلة محيرة حقاً: هل

تستطيع الآلة أن تفكر؟ هل الآلة تملك عقلاً؟ هل العقل برنامج كمبيوتر؟ كيف نميز بين العقلية البشرية والذكاء الاصطناعي؟

ويقوم موضوع الحالات العقلية على تصنيف هذه الحالات وبيان علاقة بعضها ببعض. ويتساءل: هل الآلام أحداث حسية فقط؟ أو تنطوي أيضاً على عنصر باعثي مثل النفور؟ وهل يمكن أن توجد آلام لا نعيها ؟ وهل الانفعالات مثل الغضب والغيرة تتضمن بالضرورة كيفيات محسوسة؟ وهل تتضمن عنصراً إدراكياً مثل الاعتقاد؟ وأخيراً تدور معرفتنا بالعقل على فكرتين؛ هما معرفتنا بعقولنا الخاصة ومعرفتنا بالعقول الأخرى.

وترتبط فلسفة العقل ارتباطاً وثيقاً ببعض فروع الفلسفة مثل الابستمولوجيا، والميتافيزيقا، وفلسفة العلم، وفلسفة الأخلاق. وترتبط أيضاً بفروع معرفية أخرى مثل علم النفس، وعلم الأعصاب، ونظرية المعلومات، والعلم الإدراكي. والعلم الإدراكي دراسة علمية للعقل والظواهر العقلية، ويضم عدة فروع؛ هي الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الأعصاب، وعلم الكمبيوتر، والذكاء الاصطناعي، وعلم اللغة. ويسعى إلى تفسير العقل والتفكير في حدود برامج الكمبيوتر. ويهتم الذكاء الاصطناعي- الذي اخترع اسمه جون ماكرثي John McCarthy في ندوة نظمها حول هذا الموضوع عام ١٩٥٦- بتوليد الخاصة العقلية mentality في الآلات. وإذا شئت عبارة موجزة تحدد لك لب لباب الذكاء الاصطناعي، فإليك عبارة مارفن منسكي Marvin Minsky مؤسس معمل الذكاء الاصطناعي في MIT يقول فيها هو " العلم الذي يجعل الآلات تفعل أشياء سوف تتطلب ذكاء إذا فعلها الإنسان"[(١)]. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إلى أي حد تختلف المشكلات الفلسفية عن المشكلات العلمية حول العقل؟ وما الشيء الذي يميز الدراسة الفلسفية من الدراسة العلمية للعقل؟

وأخص ما تمتاز به الفلسفة بحكم طبيعتها، أنها دراسة مفهومية نقدية للقضايا المعروضة للبحث، وليس غريباً أن تهتم فلسفة العقل بتحليل المفاهيم

العقلية مثل الوعي والقصدية والإدراك الحسي والتفكير. وهي بذلك تختلف عن البحث التجريبي في هذه المفاهيم، الذي نجده في العلوم التي أسلفنا الإشارة إليها. وهذا لا يعني أن فلسفة العقل غير تجريبية أو أنها لا تستفيد من نتائج هذه العلوم ومناهجها، وإنما أردت أن أؤكد خصوصية المعالجة والمنهج الفلسفي لقضايا العقل.

وتتجلى خصوصية التناول الفلسفي للعقل في علاقة فلسفة العقل بالميتافيزيقا. إن فلسفة العقل لا تهتم بالتحليل الفلسفي للمفاهيم العقلية فحسب، وإنما تهتم أيضاً بالقضايا الميتافيزيقية المرتبطة بهذه المفاهيم. والميتافيزيقا - التي ينظر الفلاسفة إليها على أنها أصل الفلسفة برمتها - هي دراسة لبنية العالم. وتتضمن الميتافيزيقا جانباً مهماً هو الانطولوجيا، وهي دراسة المقولات العامة للوجود؛ أي أنها تقدم تصوراً عاماً لكيفية وجود الأشياء. و تحفل فلسفة العقل بالميتافيزيقا؛ لأنها لابد من أن تقول شيئاً عن العقول والكائنات العاقلة ومكانها ضمن الإطار العام للوجود.

وليس في مقدور أي فرع من فروع العلم، حتى الفيزياء، أن ينتزع دور الميتافيزيقا. وسر ذلك أن كل علم تجريبي يفترض مسبقاً إطاراً ميتافيزيقياً يفسر فيه نتائجه التجريبية. ومن غير تصور عام متماسك للواقع كله، لا يمكن أن نأمل في استخراج نظريات وملاحظات منسجمة في العلوم المختلفة المتنوعة. وتقديم هذا التصور ليس مهمة أي علم من العلوم، وإنما هو بالأحرى مهمة الميتافيزيقا(٢).

يعتقد بعض الشكاك أن عصر الميتافيزيقا قد انقضى، وأن ما يتوق الميتافيزيقيون إلى إنجازه هو حلم مستحيل. ويزعم هؤلاء أن من الضلال والتضليل افتراض أن الكائنات البشرية في مقدورها أن تصوغ صورة صحيحة وسليمة للبنية الأساسية للواقع وأن تجعل هذه الصورة مقبولة، وسبب العجز عن ذلك في رأيهم أن الواقع عزيز المنال بالنسبة لنا وأن من

الخرافة افتراض أن الواقع يوجد مستقلاً عن اعتقاداتنا. وللرد على هؤلاء الشكاك نقول: إن البحث في الميتافيزيقا أمر لا مفر منه بالنسبة لأي كائن عاقل، وإن هؤلاء الشكاك أنفسهم يظهرون ذلك في اعتراضاتهم التي يثيرونها ضد الميتافيزيقا. ذلك أن القول إن الواقع عزيز المنال بالنسبة لنا أو إن هناك واقعاً مستقلاً عنا هو قول يمثل زعماً ميتافيزيقاً(٣). وخلاصة رأينا في هذه المسألة أن أي تقدم في فهم قضايا العقل لابد من أن يضرب بجذوره في الميتافيزيقا ويلتمس العون منها. وقد يحاول الفلاسفة الماديون فهم العقل من غير الاستعانة بالميتافيزيقا ولكنهم لا ينجحون في ذلك إلا بمقدار. وإذا أرادوا أن يحققوا نجاحاً صحيحاً ملحوظاً، فلابد من أن يستبقوا الأصول الميتافيزيقية.

وارتباط فلسفة العقل بعلم النفس يتطلب منا توضيحاً وتمييزاً فيما يتعلق بالمصطلحات. هناك فلسفة العقل philosophy of mind وعلم النفس الفلسفي philosophical psychology في ناحية، وفلسفة علم النفس philosophy of psychology في ناحية أخرى. فلسفة العقل وعلم النفس الفلسفي مترادفان في الدلالة، ولكن تعبير "علم النفس الفلسفي" توارى في أسماء المؤلفات الحالية في العقل، وتكاد لا تسمع له ذكراً. هذا توضيح، أما التمييز فيجب أن يوضع بين فلسفة العقل وفلسفة علم النفس. فلسفة العقل، كما أوضحنا، هي أحدث فروع الفلسفة، أما فلسفة علم النفس فهي دراسة فلسفية لطبيعة ومغزى نتائج علم النفس ومناهجه. وفلسفة علم النفس بالقياس إلى فلسفة العقل مثل فلسفة علم اللغة بالقياس إلى فلسفة اللغة.

٢- العقل ليس شيئاً على الإطلاق:

أسلفنا الإشارة إلى أن فلسفة العقل المعاصرة بدأت بظهور كتاب رايل "مفهوم العقل" عام ١٩٤٩، وهناك عدة أسباب وراء اختياري لهذه البداية:

١ - استخدام رايل لطريقة جديدة في معالجة قضايا العقل، وهي "التحليل

اللغوي" للمفاهيم والكلمات العقلية، التي كان من شأنها أن تغير البحث الفلسفي في العقل تغييراً خطيراً.

٢ – نقد رايل للتقليد الديكارتي الذي كان مسيطراً على البحث الفلسفي في العقل والمعروف بالثنائية dualism .

٣ – إن نقد رايل للثنائية الديكارتية لم يفسح المجال أمام مذهبه الذي سماه الفلاسفة السلوكية اللغوية (أو المنطقية) linguistic (or logical) behaviorism ، على الرغم من أنه كان ينكر هذه التسمية، وإنما فتح للفلاسفة أبواباً من التفكير وشق لهم طرقاً إلى فهم العقل ما كانوا ليعرفوها لو ظلوا يسيرون في طريق الثنائية الديكارتية.

وخلاصة القول إن النقد الذي وجهه رايل إلى ديكارت دفع فلسفة العقل إلى تطور خطير في الشكل والمضمون. ويكفي أن تستعرض النظريات المتنافسة في طبيعة العقل والوعي والقصدية، التي سيرد ذكرها في هذه الدراسة، لتتبين صدق هذا التقدير.

وإذا جاز أن نجمع البحر في قطرة، جاز أن نلخص فلسفة ديكارت في عبارتين هما: الإنسان عقل مفكر، والمادة امتداد في حركة. ويجب فهم كل شيء في حدود هذه الثنائية للعقل والمادة. والثنائية في فلسفة العقل هي المذهب القائل إن العقل والجسم يتألفان من طبيعتين مختلفتين. وتتخذ الثنائية عدة صور، أبرزها ثنائية الجوهر substance dualism عند ديكارت وأتباعه، وخلاصتها أن الإنسان مكون من جوهرين متميزين: جسم مادي وعقل لا مادي. وثنائية الخاصية property dualism عند فرانك جاكسون Frank Jackson وديفيد شالمرز David Chalmers وهما من الفلاسفة المعاصرين. وتقول ثنائية الخاصية إن الكائنات البشرية كائنات فيزيائية؛ أي أنها جوهر واحد، ولكنها تملك فئتين متميزتين من الخواص: خواص فيزيائية (أو جسدية) وخواص عقلية.

وعندما يقول ديكارت إن العقل جوهر متميز من الجسم، فإن الجوهر هنا يعني الشيء أو الكيان. ولكن لا ينبغي أن نفهم معنى الجوهر أو الشيء على أنه الوجود المادي القابل للملاحظة، وإنما الجوهر يوجد بذاته وفي ذاته وجوداً مستقلاً، ولا يعتمد في وجوده إلا على الله تعالى. وانتقد رايل الثنائية الديكارتية ونظر إليها نظرة سخط عنيف واعتبرها "أسطورة ديكارت" Descartes' Myth، وسماها "عقيدة العفريت في الآلة" the dogma of the ghost in the machine، وحاول البرهنة على أنها تقوم على خطأ كبير هو "خطأ المقولة" category mistake. وهذا المصطلح الذي ابتدعه رايل يدل على أن وضع فئة مختلفة من المفاهيم معاً لا يجعلها معقولة معاً. إذا وضعنا مفهوماً من الرياضيات مع مفهوم من الطاقة، فإننا نحصل على نتائج لا هي صادقة ولا هي كاذبة. مثال ذلك، الجذر التربيعي للاثنين شمسي. خذ مثلاً آخر، إذا قلنا إن "عدد سكان مصر ٨٠ مليون نسمة" فهذا تقرير معقول سواء كان صادقاً أو كاذباً. ولكن لو قلنا "عدد سكان مصر بنفسجي" لكان قولاً محالاً absurd. لاحظ أن هذه الصيغة الأخيرة لا تمثل عبارة كاذبة؛ لأن العبارة الكاذبة هي التي لا تناظر الواقع وفقاً لنظرية التناظر في الصدق، أو التي لا تتسق مع عبارات أخرى سبق أن سلمنا بصدقها، وفقاً لنظرية الاتساق في الصدق. وعندما وصفنا الصيغة الأخيرة بأنها محالة فهذا يعني أن الحقائق المتعلقة بعدد السكان تنتمي إلى مقولة مختلفة عن الحقائق المتعلقة بالألوان.

وقدم رايل عدة أمثلة لما يعنيه بخطأ المقولة حسبنا منها المثال الآتي: هب أن شخصاً زار جامعة القاهرة لأول مرة، ورأى حجرات الدراسة، والمعامل، والمكاتب الإدارية، والمكتبات، والمتاحف، ومساكن الطلاب، والملاعب. ثم تساءل بعد ذلك: "نعم لقد رأيت كل هذا، ولكن أين الجامعة؟" هنا يقع في خطأ. ويجب أن نوضح له أن الجامعة ليست شيئاً آخر يضاف إلى ما رآه. لقد افترض خطأ أن الجامعة عضو إضافي في الفئة التي تكون الوحدات الأخرى أعضاء فيها؛ أي أن الجامعة تقف على

قدم المساواة مع المباني التي شاهدها. والصواب أن الجامعة اسم جمعي لوحدة كاملة. بمعنى أنها لا تنتمي إلى المقولة نفسها التي تنتمي إليها المعامل أو المكتبات، وإنما تنتمي إلى مقولة عامة يمكن الإشارة إليها على أنها مجموعات كاملة.

يقول رايل عن الثنائية الديكارتية: "إنها تصور حقائق الحياة العقلية كما لو كانت تنتمي إلى نمط منطقي أو مقولة واحدة (أو مجال من الأنماط أو المقولات) بينما تنتمي بالفعل إلى مقولة أخرى"(٤). وفي موضع آخر يقرر أن "عقيدة العفريت في الآلة تفعل ما يلي: إنها تؤكد وجود أجسام وعقول معاً. وتؤكد وجود عمليات فيزيائية وعمليات عقلية، وأن هناك أسباباً آلية للحركات الجسدية وأسباباً عقلية للحركات الجسدية. وسوف أثبت أن هذه العبارات العطفية محالة، ولكن يجب أن نلاحظ أن الحجة لن تثبت أن أية قضية من القضايا المعطوفة على نحو غير منطقي محالة في ذاتها. فأنا لا أنكر – على سبيل المثال – وجود عمليات عقلية؛ ذلك أن إجراء عملية القسمة الطويلة في الحساب هي عملية عقلية. ولكنني أقول إن عبارة "توجد عمليات عقلية" لا تعني نوع الشيء الذي تعنيه عبارة "توجد عمليات فيزيائية"، ومن ثم لا يكون معقولاً أن نربط بينهما أو نفصلهما"(٥).

لقد أخطأ ديكارت عندما زعم أن العقل جوهر وشيء، ووضعه في مقولة الجسم نفسها، ولكنه أضفى عليه مجموعة مركبة من السمات غير الفيزيائية. أما رايل "فالعقل" عنده لا يدل على شيء من أي نوع، سواء كان فيزيائياً أم غير فيزيائي. إنه اسم جمعي نستعمله للدلالة على نماذج للسلوك patterns of behavior. واللغة تخدعنا أحياناً، فنظن أن كل اسم لابد من أن يدل على شيء ما، وهذا من عيوب النظرية الإشارية في المعنى، التي تقول: إن معنى الكلمة هو ما تشير إليه في الواقع. فهناك أسماء تشير إلى أشياء مثل أسماء الأعلام: محمد وأحمد، وهلم جرا. وهناك أسماء لا تشير إلى أشياء، مثل الكلمات

المجردة "الشجاعة" و "التقوى" و "العدالة". فالعقل اسم، ولكن هذا لا يقتضي أن يكون اسماً لشيء ما. العقل لا يسمى شيئاً على الإطلاق، وإنما هو كلمة عامة نستعملها للدلالة على نماذج السلوك، والميول، والاستعدادات للسلوك بطرق معينة. عندما نقول إن الناس لهم أجسام وعقول، فمن الخطأ أن نفسر ذلك على أنه يشبه القول إن الطيور لها مناقير وريش أو إن القطط لها أرجل وذيول.

وعندما نظر رايل إلى العقل على أنه استعداد للسلوك مثل استعداد الزجاج للانكسار أو السكر للذوبان، صنف الفلاسفة مذهبه على أنه "سلوكي". ولكن بأي معنى؟. اتخذت السلوكية في القرن العشرين عدة صور:

١ - السلوكية الميتافيزيقية metaphysical behaviorism : وترى أن الحالات العقلية متطابقة مع السلوك، ولا يوجد شيء داخلي أو خفي، لا شيء سوى السلوك. وتسمى ميتافيزيقية ما دامت تدعي زعماً ميتافيزيقياً حول طبيعة العقل أو الحالات العقلية، وتقول: إن هذه الحالات هي مجرد سلوك قابل للملاحظة بشكل علني.

٢ - السلوكية المنهجية (أو النفسية) methodological (or psychological) behaviorism : وترى أن الدراسة التجريبية للعقل لابد من أن تبدأ بالسلوك. وهي لا تدعي شيئاً حول طبيعة العقل، ولكنها تعتقد أنه إذا كان هناك عقل أو حالات عقلية داخلية، فإنها لا تقبل الملاحظة العلمية ومن ثم يجب تجاهلها. وهذا يعني أنها لا تنكر وجود الحالات العقلية التي ربما تكون متاحة لأصحابها فقط، ولكنها تبرهن على أن السلوك يمكن أن يكون تبياناً كافياً للحالات العقلية كائنة ما كانت.

٣ - السلوكية التحليلية (أو المنطقية) analytic (or logical) behaviorism: وتؤكد أن العبارات المرتبطة بالعقل يمكن ترجمتها إلى عبارات عن السلوك العلني أو الممكن، وأن العبارات التي تتضمن ألفاظاً عقلية يمكن تحليلها إلى عبارات تتضمن ألفاظاً تتعلق بسلوك فيزيائي.

ويصور كارل همبل Carl G. Hempel (١٩٠٥ – ١٩٩٧) هذا الاتجاه الذي قبله كثير من رفاقه من الوضعيين المنطقيين في مقال "التحليل المنطقي لعلم النفس"، والذي ظهر أولاً عام ١٩٣٥، وترجمه وليفرد سيلرز Wilfred Sellars عام ١٩٤٩، ثم أعيد نشره في كتاب همبل "مقالات فلسفية مختارة" عام ٢٠٠٠، يقول همبل: "كل العبارات النفسية ذات المعنى – أعني التي تكون قابلة للتحقق من حيث المبدأ – تقبل الترجمة إلى قضايا لا تتضمن مفاهيم نفسية وإنما تتضمن مفاهيم فيزيائية فقط. وقضايا علم النفس هي إذن قضايا فيزيائية. وعلم النفس هو جزء مكمل للفيزياء"(٦).

وسلوكية رايل ليست من النوع الميتافيزيقي، وأنا هنا أختلف مع وليم ليكان(٧)، ولا من النوع المنهجي النفسي(٨)، ذلك أن رايل لم يكن مهتماً بالميتافيزيقا، ولم يكن مهتماً بالدراسة العلمية التجريبية للسلوك، وإنما كان مهتماً "باللغة" في المقام الاول، ولذلك تسمى وجهة نظره بالسلوكية اللغوية (أو المنطقية) linguistic (or logical) behaviorism. إن الفكرة السائدة عن فلسفة رايل في العقل عند معظم شارحيه هي أنه سلوكي تحليلي أو منطقي، وأنه لا يوجد اختلاف بين نظريته ونظرية كارل همبل. والرأي الذي نقبله ونطمئن إليه هو أن سلوكية رايل مختلفة عن سلوكية الوضعية المنطقية كما جسدها همبل.

كانت سلوكية همبل جزءاً من نزعته الفيزيائية physicalism التي مؤداها أن كل شيء إما أن يكون فيزيائياً أو يقبل الرد إلى ما هو فيزيائي. وعلى العكس من ذلك، لم يكن رايل فيزيائياً. وإنما اعتبر أن السؤال عما إذا كان العالم فيزيائياً في نهاية المطاف ملتبس من الناحية المفهومية. وتبعاً لذلك تحدث رايل عن الاستعدادات السلوكية، وأظهر ميلاً قليلاً لتحليل هذا باستمرار في حدود الاستعدادات السلوكية الفيزيائية(٩).

ولقد نحى رايل جانباً الجدل الميتافيزيقي حول طبيعة العقل، وكرس جل

جهده الفكري لإثبات أن جميع المفاهيم والكلمات العقلية، بما في ذلك العقل، يمكن تحليلها أو ترجمتها إلى استعداد لسلوك فعلي أو ممكن. خذ مثلاً يوضح ذلك: إن اعتقاد الطالب بأن السماء تمطر يعني الاستعداد للسلوك بطرق معينة في ظروف معينة، من قبيل الاستعداد لحمل المظلة، أو إخفاء الكتب بعيداً عن المطر، أو الجواب عن السؤال "هل تمطر؟" بنعم. وعلى هذا النحو ندرك مفهوم الاعتقاد في حدود السلوك سواء كان سلوكاً لغوياً أم غير لغوي.

وربما تحت تأثير رايل، يتحدث كثير من الفلاسفة اليوم حديثاً قصيراً عن العقل وحديثاً طويلاً عن الحالات العقلية mental states مثل حالة الاعتقاد في شيء ما، والرغبة في شيء ما، وتذكر شيء ما[١٠].

ولكن سيرل ينتقد السلوكية أعنف النقد ويبغضها أشد البغض. كان الرأي عند رايل أن المعاناة من ألم الكلى، مثلاً، هي الاستعداد للسلوك بطرق متنوعة مثل الصراخ، والإمساك بموضع الألم، والتقلب على الفراش، وتناول الدواء. صحيح أن الألم يجعل الشخص الذي يعانيه يميل إلى فعل أشياء معينة لكي يتخلص منه. ولكن الألم شيء والميل إلى فعل الأشياء شيء آخر. وفي ذلك يقول سيرل: " تبدو السلوكية خاطئة بوضوح؛ لأن كل شخص يعرف، مثلاً، أن الشعور بالألم شيء والسلوك المرتبط بالألم شيء آخر"[١١].

٣ – خطة الدراسة ومنهجها:

حاولت في المقدمة تحديد المقصود بفلسفة العقل وبيان موضوعاتها الأساسية، وأوضحت صلتها بالعلم الإدراكي في والميتافيزيقا، ثم أظهرت الخلاف بين الثنائية والسلوكية حول طبيعة العقل. وجاء الفصل الأول ليرسم صورة موجزة لتطور فلسفة سيرل، ركزت خلالها على السنوات التي قضاها في جامعة أكسفورد وتتلمذ فيها على يد فلاسفة مثل أوستن وستراوسون وغيرهما، وأوضحت الأفكار التي يقتسمها سيرل مع غيره من الفلاسفة

التحليليين، والملامح التي تميز فلسفته داخل التقليد التحليلي، وعلى رأسها رغبته الملحة في تقديم تقرير فلسفي موحد عن أنفسنا وعلاقاتنا بالآخرين وبالعالم الطبيعي .

ثم ألقيت أضواء شارحة على جوانب منهجه التحليلي، واعتماده على برهان الخلف في رفض كثير من الدعاوى الفلسفية التي لا تجد لديه قبولاً، وبينت مدى اهتمامه بتحليل الأسئلة الفلسفية قبل محاولة الإجابة عنها، وكان دافعه في ذلك هو كشف ما تنطوي عليه تلكم الأسئلة من افتراضات خاطئة أحياناً وغامضة أحياناً أخرى. والقاعدة الرائعة البسيطة التي يقدمها لنا تقول: " لا تسلم بالأسئلة، حلل السؤال قبل أن تجيب عنه ".

وفي نهاية الفصل أوضحت تحول سيرل من فلسفة اللغة إلى فلسفة العقل، وهو تحول جاء في جانب كبير منه من قصدية اللغة إلى قصدية العقل، وإن شئت قل من التمثيل اللغوي إلى التمثيل العقلي. يقول سيرل: " إذا أخذت السؤال: كيف تمثل represent لغتنا الواقع؟ مأخذ الجد، فلن تجد بداً في نهاية الأمر من الرجوع إلى السؤال: كيف يمثل أي شيء شيئاً آخر ؟ وهذا يقودك إلى فلسفة العقل. والسؤال الأساسي في فلسفة العقل هو: كيف تستطيع حالاتنا العقلية أن تمثل سير الأحوال في العالم ؟ ".(١٢)

وقدمت في الفصل الثاني تعريفاً لمفهوم القصدية، وحللت بنية هذا المفهوم إلى عناصره الأساسية، ثم أزلت نوعين من الخلط يحيطان بالقصدية، ويقطعان السبيل إلى فهمها؛ **الأول** يتمثل في الربط الجوهري بين القصدية والقصد (في معناه العادي) إلى درجة المطابقة بينهما، والصواب أن القصد صورة واحدة فحسب من صور القصدية الكثيرة. **والثاني** هو الخلط بين القصدية والمفهومية، والصواب أن المفهومية ليست كافية لوجود القصدية. وبعد ذلك فرغت لفكرة التمثيل بصفة عامة على أساس أن وظيفة القصدية هي التمثيل العقلي للأشياء ووقائع العالم وحالاته. والسبيل المفضي إلى فهم القصدية أو

التمثيل العقلي لا بد من أن يمر أولاً بالتمثيل التصويري ثم التمثيل اللغوي، وهما وسيلة إلى القصدية، ومن أراد الغاية، فقد أراد الوسيلة. وتاريخ مفهوم القصدية خليق بأن نلقي عليه نظرات متأنية من البحث في أصل المفهوم، وإحياء برنتانو له فيما يعرف بدعوى برنتانو. وتظفر هذه الدعوى بمناقشة تقف على جوانبها المختلفة وتنظر في تأويلات الشراح لها، وتقبل واحد من هذه التأويلات أعتقد أنه الأقرب إلى الصواب.

وما دامت القصدية هي قدرة العقل على توجيه ذاته نحو الأشياء، فإن علاقة الاتجاه القصدي تحتاج إلى توضيح، وهذا ما أقدمه في بداية الفصل الثالث. وبعد ذلك أحاول الإجابة عن سؤالين: هل كل الحالات العقلية تظهر القصدية؟ وهل الحالات العقلية هي وحدها التي تظهر القصدية ؟ ويتضح من الإجابة عنهما مدى اختلاف سيرل ومن سايره من الفلاسفة، الذين سيرد ذكرهم فيما بعد، مع برنتانو. فأما جواب برنتانو عن السؤالين فهو الإيجاب، وأما جواب سيرل عن السؤال الأول: بعض الحالات العقلية - وليس جميعها - تملك قصدية، ويجيب الفلاسفة المعاصرون عن السؤال الثاني بقولهم: هناك ظواهر غير عقلية تظهر القصدية. والنتيجة التي أخلص إليها بعد مناقشة هذه الأسئلة وإجاباتها هي قبول جواب السؤال الأول، وأوضح في جواب السؤال الثاني أن بعض الظواهر الفيزيائية (غير العقلية) التي تملك القصدية مثل الكلمات والرموز تملكها بصورة مشتقة وليست بصورة أصلية. فالقصدية الأصلية هي قصدية العقل .

ثم نناقش محاولات رد القصدية أو استبعادها مثل السلوكية والوظيفية والنزعة المادية الاستبعادية، ونبين إخفاق حجج هذه المحاولات ورد سيرل عليها، ثم نوضح مذهبه الذي سماه " المذهب الطبيعي البيولوجي "، وتمييزه بين الخصائص المنطقية للحالات القصدية ووضعها الأنطولوجي.

ويناقش الفصل الرابع بنية الحالات القصدية من خلال الكشف عن ملامحها

الأساسية، وهي أن الحالات القصدية ذات مضمون قصدي وشكل سيكولوجي، وأنها تملك اتجاهاً للمطابقة، وأنها تملك شروطاً للاستيفاء والنجاح، وأن قصدية الحالات العقلية باطنية وليست مشتقة.

وبعد أن حدد سيرل طبيعة القصدية وبنيتها، وقدم جهازاً مفهومياً يملك القدرة على التعامل مع مشكلاتها، عني بالوقوف على صورها الجزئية، وجاءت قصدية الإدراك الحسي وقصدية الفعل في صدارة اهتماماته؛ لأنهما صورتان أوليان من الناحية البيولوجية. ويكشف الفصل الخامس عن التشابهات والاختلافات بين قصدية الإدراك الحسي وقصدية الحالات الأخرى مثل الاعتقاد. ثم يعالج هذا الفصل أيضاً تمييز سيرل بين القصد السابق والقصد في الفعل، ويوضح التشابهات والاختلافات بين قصدية الفعل وقصدية الإدراك الحسي. ويركز الفصل السادس على مفهومين أساسيين هما شبكة الحالات القصدية وخلفيتها. ويأتي الفصل السابع والأخير ليوضح الصلة الجوهرية بين القصدية والوعي، ويبين أنه من الخطأ القول إنهما مفهومان مستقلان، ويعتمد إثبات هذا الخطأ على بعض النظريات المعاصرة في الوعي بالإضافة إلى آراء سيرل التي تنتهي إلى نتيجة مؤداها أن فهم القصدية لا يتحقق إلا في حدود الوعي.

وأردت في هذه الدراسة أن أحقق جملة من الأهداف يأتي في موضع الصدارة منها:

١ - إثارة الأسئلة الفلسفية الأساسية المتعلقة بالعقل على ضوء التطورات الحالية في فلسفة العقل والعلم الإدراكي .

٢ - صحيح أن طرح الأسئلة الفلسفية " الصحيحة " حول العقل يعد هدفاً فلسفياً في حد ذاته، ولكن هذه الدراسة تسعى أيضاً إلى الإجابة عن بعض هذه الأسئلة، وتستفيد في الإجابة من نتائج النظريات الفلسفية المتنافسة في العقل .

٣ – توضيح جوانب المنهج التحليلي الذي يستخدمه سيرل في معالجة المشكلات الفلسفية بعامة ومشكلات فلسفة العقل بخاصة، وبيان أين يلتقي مع غيره من الفلاسفة داخل تقليد الفلسفة التحليلية وأين يفترق عنهم .

٤ – توضيح مفهوم القصدية وإزالة ما يكتنفه من لبس وغموض، وأعتقد أن هذه ضرورة منهجية لا مندوحة عنها عند دراسة أية مشكلة فلسفية، ذلك أن أخطر ما تبتلي به الفلسفة هو أن نسلم بالمفاهيم الأساسية في فروعها وكأنها واضحة بحيث لا يحتاج أمرها إلى بيان .

٥ – الكشف عن أصل القصدية وتاريخها وبخاصة إسهام برنتانو، وتجلية أوجه الاتفاق والاختلاف بين برنتانو وسيرل في فهمها .

٦ – بيان نظرية سيرل في القصدية وإبراز ملامحها الأساسية وما يرتبط بها من قضايا مثل الوعي وتفكير الآلة، وموقف سيرل من النظريات الأخرى التي تعالج هذه القضايا وبخاصة التي تسعى إلى رد القصدية أو استبعادها .

٧ – بيان الصلة الوثيقة بين فلسفة العقل وفلسفة اللغة، وإثبات أن اللغة والعقل يظهران القصدية معاً، وأن قصدية العقل هي الأساس لقصدية اللغة، وسر ذلك أن العقل هو الذي يفرض القصدية على اللغة، وليست اللغة هي التي تفرض القصدية على العقل.

والمنهج الذي اصطنعته في هذه الدراسة هو المنهج التحليلي في صوره المتنوعة وبخاصة التحليل اللغوي والتحليل المنطقي، وهو منهج دأبت على استخدامه فيما كتبت من دراسات سابقة، وهو يأتي منسجماً مع رؤية لوظيفة الفلسفة باعتبارها تحليلاً منطقياً للمفاهيم، وأستفيد في عناصره وخطواته من فلاسفة التحليل بعامة وفلاسفة أكسفورد و فيلسوفنا سيرل بخاصة. وسوف تجد عرضاً لهذه العناصر في الحديث عن منهج سيرل. زد على ذلك أنني

أستفيد أيضاً من المنهج التاريخي عند تأصيل الأفكار فأحاول رد الأفكار المعاصرة إلى أصولها القديمة أو الحديثة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ذلك أن معرفة سيرة المفاهيم تكشف عن معانيها الأصلية وتبين تطورها إن أصابها شيء من التطور، وتظهر أين تتفق مع معانيها المعاصرة وأين تختلف معها.

وسوف تلحظ أنني يسرت لدراستي هذه مصادرها الأساسية ومراجعها الحديثة، ولم أرفع القلم منها حتى نظرت في أفضل ما كتب في بابها وأحدثه. وسوف تلحظ أيضاً أن هذه الدراسة تنطوي على موقف تجاه النظريات الفلسفية المعروضة في العقل؛ فهي لا تقبل عليها في تهور واندفاع، ولا تسرع إليها بتسليم واقتناع، ولا تلقاها بكثير من الإنكار لها والازورار عنها، وإنما تناقشها مناقشة هادئة أخص ما يميزها هو التروي والفهم .

وفي نهاية الدراسة وضعت قائمة بمؤلفات سيرل مرتبة ترتيباً زمنياً حتى كتابة هذه السطور، اعتمدت في وضعها على كتاب " جون سيرل ونقاده "، واعتمدت أيضاً على صفحة سيرل الموضوعة على الإنترنت على موقع جامعة كاليفورنيا - بركلي، ثم أكملت هذه القائمة من خلال متابعتي لكتبه ومقالاته. وكلي أمل أن تكون هذه القائمة عوناً للباحثين في جوانب فلسفته المختلفة .

ولعلي بهذه الدراسة قد مهدت الطريق إلى فرع فلسفي جديد في العربية، ولعل في شبابنا من ينتبه إلى خطورة هذا الفرع وجدته، فيشمر الساعد لبحث مشكلاته ومعالجة قضاياه، ولا يكتفي بظواهر الموضوعات وإنما يتعمق حقائقها .